الفكر العربي

مجلة الإنماء العربي للعلوم الانسانية

تصدر عن معهد الإنماء العربي في بيروت

العدد الحادي والثلاثون   كانون الثاني (يناير) - آذار (مارس) ١٩٨٣   السنة الخامسة

مستشارو التحرير

د. علي بن الأشهر   د. إحسان عباس   د. شكري فيصل

الشيخ عبدالله العلايلي   د. عمر التومي الشيباني   د. عبد السلام المسدي   رئيس التحرير

د. مصطفى التير   د. معن زيادة   د. إبراهيم رفيدة   رضوان السيد

المدير المسؤول   عوض شعبان

العنوان

معهد الإنماء العربي
بيروت - لبنان

الهيئة القومية للبحث العلمي
طرابلس   ص.ب ٨٠٠٤
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

ص.ب المجلة : ١٤/٥٥٦٤   ص.ب المعهد : ١٤/٥٣٠٠

الثمن : ٢ ل.ل. أو ما يعادلها

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٨٦١١
التاريخ / ٢٠١٤/٢/١٥

كتب

جاذبية الإسلام (*)

ماكسيم رودنسون

مراجعة د. فائق حمصي

يتألف هذا الكتاب من ثلاثة أجزاء. يبدأ بمقدمة كتبت بشكل خاص كي تعرض من جهة النص الفرنسي الذي ساهم به رودنسون في كتاب شاخت (Schacht) «تراث الإسلام» ومن جهة أخرى المؤتمر الذي عقد في(leyde)عام (١٩٧٦) في الجمعية الهولندية لدراسة الشرق الأوسط والإسلام. ثم ينتهي بخاتمة من عشر صفحات تلقي ضوءًا على الكتاب بمجمله، وتبين المواضيع الرئيسية التي تناولها الكاتب. يعتبر هذا الكتاب بمثابة كاشف لأن لرودنسون مكانة «خاصة» في الاستشراق الأوروبي، فهو باحث ذو اهتمامات متعددة وذو كفاءات متعددة، يبقى عالماً بالآداب القديمة (humaniste) دون اعتبار لما يحمله هذا المصطلح على لسان البعض من معنى رجعي أو مهني؛ ولكنه أيضاً، بتكوينه خاصة، إنسان يؤمن بالموضوعية العلمية، بالعمل الدؤوب المرتبط بالواقع، والذي يتحسس لعالم السياسة معتبراً بقدر كبير أن المستشرق الشريف لا يستطيع أن يبقى مقتصراً على فقه اللغة أو أن يلتزم بتبني مواقف ومباحث الشعوب التي يدرسها. إن الجميع يعرفون كُتب رودنسون (الاسلام والرأسمالية) (الماركسية والعالم الاسلامي) بل أيضاً (اسرائيل والرفض العربي) و (اسرائيل، كلب صيد الاستعمار) تلك الكتب التي كلفته عداء طرفي الصراع بشكل دوري. و «سحر الاسلام» إذن هو كتابه الأخير. «في البداية، كان أحد دوافعي أيضاً هو رصد ما لإدانات البعض وما لضمير البعض الآخر الطيب الراضي من أسس وما يخبئه من تعميم ايديولوجي» «إن ما يهم بالدرجة الأولى، من الناحية العلمية، هي دراسة الطريقة التي تنحت بها، كما تتحدد وتتطور مواقف ومفاهيم مجموعة كبيرة من الشعوب ذات الثقافة المتشابهة تجاه مجموعة أخرى لها النمط نفسه. وغالباً ما تكون الأفكار المسبقة حول هذا الموضوع تحت اسم العرقية أو «العنصرية»، هي نوعاً ما صحيحة، ولكنها غامضة جداً. لا يمكن أن يتعلق الأمر هنا بنظرة موضوعية للواقع. لقد حاولت أن أبيّن أن العوامل الكبرى، كان يشكلها من جهة الموقف المحترم (والمتغير) للعالمَيْن المتواجهين؛ ومن جهة أخرى النزعات الداخلية للمشاهد ـ الداخل في اللعبة، الذي يُصدر الأحكام. (هذه النزعات هي أيضاً متغيرة وبقدر كبير بفعل العوامل الداخلية أيضاً). إن لهذه النزعات بشكل طبيعي الميل في أن تتشكل من خلال إيديولوجيا». بعد أن يقوم رودنسون بتنويع الشروط العلمية لأعمال الرصد

(*) Maxime Rodinson - La fascination de l'Islam, PCM (Petite coll ection maspéro), Paris 1980; (155 Pages).

والتحليل، وبعد أن يعرض بشكل إجمالي مبدأ الشك على طريقة هيزمبرغ (Heisenberg)، يقع رودنسون في الخطل نفسه الذي يتهم به الآخرين، والذي كان يريد أن يتجنبه؛ فهناك العديد من الصور المتشكلة على أنها هي نفسها بالتأكيد إيديولوجية؛ إن ايديولوجيته الخاصة به تقوم بحق على الموضوعية العلمية ـ في منطق البرهان نفسه وما يتوصل إليه من تعميم ـ أسطورة لموضوعية «محدودة أيضاً»، ولكنها في الحقيقة ليست سوى شبكة من شكوكه الهائجة وشرفه الممزق.

يضع رودنسون «السبر النقدي للحجج الجدلية» في موضع الحَكَم غير المفيد لكلا الطرفين، وهذا لا يعني أنه يجب الانحياز بالتحديد لطرف أو لآخر، ولكن هذه الراديكالية شريفة وسليمة النية إلى حد أنها تؤدي إلى تحويل الاستشراق إلى اجتماعوية مبهمة وقلقة؛ ولا تصبح الايديولوجيا سوى ثياب صعبة الاقناع لما كان يجب أن يبقى عارياً.

إنني أعرف أن رودنسون في عرف المستشرقين الفرنسيين المعاصرين، هو المستشرق الأكثر هامشية، وذلك اختياراً قبل أي اعتبار سياسي آخر. إذ إن روندو جنرال، وبيرك مستشار سياسي، ومونتاي ملحق عسكري قديم، ودومينيك شوڤاليه مستشار عسكري في وزارة الخارجية. يضع رودنسون نفسه في موقف صعب منذ مقدمة الكتاب، إن كتابه، كما يقول، ليس تجميعاً مبحَّراً كي يقدَّر، ولا هو دراسة بسيطة سطحية كي يستهان به. وعلى أي حال، يبدو بديهياً أن تاريخ رؤى الغرب للشرق المسلم، لا يمكن أن يعالج بشكل جدي فمن إطار دراسة سطحية. وهذا ما هو عليه الكتاب الذي بين أيدينا، مع أن كاتبه يدافع فيه عن نفسه. مع ذلك، يجب علينا التعرُّف على نزاهة رودنسون الجوهرية، دون أن نجهل الجانب المتعلِّق بسيرة حياته وأثر المعطيات الشخصية والبيوغرافية؛ لأن رودنسون المهتم بقدر ما بالايديولوجيا في السنوات الأخيرة بعد نقده ونقده الذاتي للماركسية الذي قام به منذ زمن بعيد، يحافظ بالتأكيد على تعنُّت نظري تخففه دائماً سخريته وروحه المرحة في الحياة اليومية، ولكن هذا التعنُّت في حالة النص هذا، يعيق تماماً وضع جهاز تصوُّري كاف لضبط وتناول وتحليل معطيات ليست إيديولوجية ولا اجتماعية. إن مهاجمة الايديولوجيا لا تشكِّل جريمة أكبر من عدم امتلاكها؛ ولكن هناك ذلك الشطط في النص، أعني النص الذي شارك به في كتاب «تراث الاسلام» لشاخت (Schacht) (الذي يحبه ويحترمه لشجاعته وأعماله)، إذ إنه أدخل فيه القليل جداً من التحليل الايديولوجي.

إن الرغبة في تناول الايديولوجيا، تحليل الايديولوجيا ضمن إطار اجتماعي، تناولاً ضمن إطار موضوعي وعلمي، يمكن أن يتم من خلال تأليف آخر. كان يتوجب عليه القيام به (هناك دائماً، كخلفية، رغبة في إدخال تحليل الماركسية في تحليل الايديولوجيات العام)

يقول رودنسون إنه يحاول أن «يبيِّن أن هناك مسيرة ممكنة تنبثق بحذر من المجرد، وهي دائماً مهيأة من جهة أخرى إلى أن تعيد النظر به، مطَّلعة على الأحداث قدر الإمكان، ودون أن تبحث عن الشمولية. هذا ما يسمى، على ما أعتقد، المسيرة العلمية». بالتأكيد، إننا نتوقع من رودنسون ذلك، ولكن النتيجة مخيِّبة، وهنا تكمن المشكلة. لأننا عندما نستمع إلى ما يقوله رودنسون حول هذا الموضوع في جلسات خاصة نرى أنه أخَّاذ ومضيء أكثر من ذلك الشطط حول (Watt) أو (Y. Moubarac) و (Djaït) ومطرقة إدوار سعيد المثيرة للأعصاب والتي تَوصل رودنسون إلى أن يسلم بها. في الواقع، إن ادوار سعيد هو المحاور المثالي والمثير للأعصاب والمغيظ، الذي يحلم به رودنسون. كل شيء سهل وواضح وعام. يبدو رودنسون أنه نسي ذلك الظمأ، ظمأ العالم العربي للتفسير، ذلك العالم الذي يتوق إلى فهم نفسه أمام الآليات الضخمة. إنه يريد أن يعطي درساً في الموضوعية العلمية لشعب

لشعوب اللغة العربية، ونحو ضرورة ملكة القواعد وقراءة النص.

إن ريسكه يمثّل تغيراً جذرياً في مسيرة الدراسات العربية في ألمانيا، وقد عُمل الكثير من أجل تحييد هذه المسيرة على كل الصعد، كما يمثّل نقداً جذرياً لهذه الدراسات.

إن إبعاده عن السلك الجامعي، وزوال ثقة الأوساط الجامعية به، لم يسهلا عليه أبداً، وبالتأكيد، هذه المهمة أو طباعة كتبه؛ كما مَنَعاه خاصةً من تكوين طلاب.

هناك معاصر وزميل لريسكه هو **ميخائليس** (١٧١٧ - ١٧٩٠)، علّم العربية في غوتنجن وموسكو. ويعود الفضل إليه في إقناعه ملك الدانمرك بتمويل رحلة **كارستن نيبوهر** إلى الجزيرة العربية، والتي طبع الأعمال المتعلقة بها. لقد نشر أيضاً مقطعاً من جغرافية أبي الفداء.

وينبغي علينا عدم نسيان صديق لريسكه، **شنورر**، الذي إليه يعود الفضل في فهرسة للكتب العربية حتى مطلع القرن التاسع عشر، مطبوعة في هال سنة (١٨١١).

ولكن التجديد الفعّال والمنتظر سوف يأتي مرة أخرى من فرنسا، مع الألمانيين الذين سيقومون برحلة إلى باريس للدراسة في مدرسة اللغات الشرقية لدى **سيلڤستر دي ساسي**.

سيلڤستر دي ساسي (١٧٥٨ - ١٨٣٨)، جنسيني (من مذهب جنسينوس) وملكي؛ يبسط القواعد العربية، كوضعي (متأثر بالوضعية) متأثر بقواعد پور رويال.

إن طلابه الألمانيين يحملون معهم إلى جامعات بلادهم، اهتماماً بالعربية كلغة وأدب، سوف يُحارب من قبل التقليد اللاهوتي البروتستانتي بكل الوسائل.

وعلى هذا المستوى، هناك انغلاق للجامعات الألمانية، وضيق آفاق، في القرن التاسع عشر، سيعاني منهما الرّواد والمجددون القلائل كثيراً. وليس عرضياً أن تأتي التجديدات حتى في الألسنية المقارنة، فيما بعد، من الخارج: من النمسا ومن سويسرا مثلاً مع دي سوسير.

إن طلاب دي ساسي (**فريتاغ، فلوجل، هابيخت، كوزغرتن، دورن، اولشوزن، ميتشرليتش، أليولى، برنشتاين، شولتنز وفليشر**) سوف يسودون الاستشراق الألماني في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

جورج فيلهم فريتاغ (١٧٨٨ - ١٨٦١)، وُلد في لينبورغ، وبعد تلقيه بعض مبادىء العربية في ألمانيا، قام برحلة إلى باريس، حيث درس عند دي ساسي التركية والفارسية. عُين أستاذاً للغات الشرقية في بون سنة

(١٨١٩)، حيث اشتهر بقدرته على العمل.

وكعاشق لفقه اللغة العربية، كان يعطي طلابه في الوقت ذاته معرفة جيدة للقواعد العربية.

وعندما وجد عمل «**غوليوس**» غير كاف، وضع كتابه (المعجم العربي ـ اللاتيني) (هال ١٨٣٠ ـ ١٨٣٧) في أربعة أجزاء، وهو تطوير جيد لعمل **غوليوس**، ولكن هذا الكتاب سيجعله مشهوراً في كل أوروبا. متمرساً بالشعر العربي، بنشره لحماسة أبي تمام ولشروحات للتبريزي، فقد أدخل التقطيع الشعري العربي في كتابه: «Darstellung des Arabishen Verskunst». وإليه يعود الفضل في كتاب: «الأمثال العربية»، وهو عبارة عن أمثال عربية مع ترجمتها اللاتينية. أمّا **جـ. غ. ل. كوزغرتن** (١٧٩٢ ـ ١٨٠٠)، فقد درس في باريس عند دي ساسي (١٨١٣)، وسُمي، من قِبل غوته، أستاذاً للغات الشرقية في يينّا. وإليه يعود الفضل في نشر «ألف ليلة وليلة»، و«ابن بطوطة»، و«تاريخ الأمم والملوك» للطبري، وهي نشرات أكملها فلهاوزن، نولدكه، دي يه وآخرون.

وهناك معاصر لفريتاغ، هو **فريدريك روكرت**، ولد في باڤيير سنة (١٧٨٨)، وهو أحد الذين ينهلون من منبع الشعر وعشق اللغات، بعد دراسات متينة لفقه اللغة التقليدي في يينّا، قام بالرحلة المعهودة إلى ايطاليا؛ وفي طريق عودته صادف في ڤيينا سنة (١٨١٨)، **هامّر ـ بورغستال** الذي دفعه إلى الترجمات من العربية ومن الفارسية. في (١٨٢٦)، وبناءً على طلب هذا الأخير، سوف يعلّم اللغات الشرقية في ايرلانجين، ثمّ في جامعة برلين، وفي جامعة يينا، وبعدها سينعزل في كوبرغ، حيث سيعيش بهدوء، وهو يكتب حتى موته سنة (١٨٦٦).

وعند هذا الحد، لن تكون **لروكرت** أية علاقة بالاستشراق، سوى استعمال اللغات الشرقية كحافز لشعره، والفكرة التي وضعها لذاته حول غنى المادة الشعرية الشرقية وضرورة استيعابها من الشعر الالماني. وقد ترجم إلى الألمانية جلال الدين الرومي والحريري، عندما ظهرت في (١٨٢٢) ترجمة دي ساسي للمقامات. وسوف يترجم أيضاً مقاطع من القرآن، والشهنامة وديوان أبي تمام، الذي سينشره فريتاغ.

هنريخ أوالد (١٨٠٣ ـ ١٨٧٥)، لاهوتي في تكوينه، وسوف يهتم تدريجياً بفقه اللغة. إن أعماله الأولى مكرّسة لترجمة العهد القديم، في صراع مدرسة غوتنجن مع مدرسة توبنجن، حول مسائل اللاهوت البروتستنتي والرؤيا.

كان طموحه، وكما كانت النظرية في زمانه، بإعادة اللغات السامية إلى قواعد عقلانية؛ إنها تأملات ظرفية